العلوم الصحية بالعربية في المغرب: من التصور إلى التطبيق

الأستاذ احمد عزيز بوصفيحة
أستاذ طب الأطفال بكلية الطب والصيدلة بالدار البيضاء
رئيس الجمعية المغربية للتواصل الصحي

للغة قيمة جوهرية كبرى في حياة كل أمة فإنها الأداة التي تحمل الأفكار، وتنقل المفاهيم فتقيم بذلك روابط الاتصال بين أبناء الأمة الواحدة، فهي الترسانة الثقافية التي تبني الأمة وتحمي كيانها. وكما أنها تصون وتحمي الهوية، فإن اللغة تنمو وتنتشر ويعلو شأنها ويزداد الاهتمام بها بنمو الهوية وثبات حضورها الوطني والإنساني، لهذا أدرك الرواد و المفكرين العرب ، والمتمسكون بعروبتهم ولغتهم، إن الأمة التي تخسر لغتها تضيّع هويتها وخصوصيتها، وتخسر ذاتها ومستقبلها، فكانت دعواتهم صريحة وصارمة للتمسك باللغة العربية، والدفاع عن تراثها الثقافي والعلمي و حمايتها عبر التنصيص عليها بالدساتير العربية.

لكن و من خلال الرجوع إلى أرض الواقع يتضح التناقض بين واقع اللغة العربية التي حسب الدساتير العربية ومنها الدستور المغربي الذي ينص بكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد، إذ يلاحظ سيادة اللغة الفرنسية على التعليم الجامعي وخصوصا في ميدان العلوم الصحية ،و لهذا جاءت الجمعية المغربية للتواصل الصحي التي تعتبر أول جمعية وطنية تنادي بتعريب العلوم الصحية بالمملكة المغربية لدحض المغالطات التي يسوقها البعض بكون اللغة العربية أصبحت عاجزة أن تكون لغة تدريس للعلوم وبكون الإنجليزية هي لغة العلم ، و أن الأساتذة غير قادرين على التدريس باللغة العربية نظرا لتكوينهم الفرنسي، و أيضا مسألة قلة المراجع و المقررات و المصطلحات التقنية. انطلاقا من هذه المغالطات تعمل الجمعية على إبراز دور اللغة الوطنية في نجاعة العملية التربوية بأكملها و إرساء اللبنة الأولى لتعريب العلوم الصحية بالجامعة المغربية بالانتقال من التصور إلى التطبيق آخذة بعين الاعتبار أربع ركائز أساسية هي : الإقناع ، الطمأنة ، الإنجاز ، التعاون.

ا. الإقناع:

إن الدول العشرين المتقدمة في الطب تُدَرِّسُ بلغتها الوطنية. وإذا استثنينا الولايات المتحدة وانجلترا، فجل الدول 18 الأوائل في العالم لا تُدرس العلوم بالانجليزية، و هكذا فألمانيا تدرس الطب بالألمانية واليابان بالبيانية وتركيا بالتركية. من هنا يمكن أن نستنتج أن تدريس العلوم باللغة الإنجليزية ليس شرطا للتفوق في المجال العلمي وخاصة الطبي وأنَّ التدريس باللغة الوطنية يُبَوِّئُ أعلى المراتب العلمية ويؤدي إلى تطور الطب والبحث العلمي.

كما أن منظمة اليونسكو توصي باستخدام اللغة الوطنية في التعليم إلى أقصى مرحلة ممكنة. إذ يعتبر تعليم الطب باللغات الوطنية ليس فقط مسالة تأكيد للهوية و تعميق للذات، بل ضرورة حتمية لنجاعة العملية التربوية عكس ما يروج له من كون التدريس باللغة العربية في المرحلة الثانوية هو سبب عدم التمكن من المواد العلمية في المرحلة الجامعية بل بسبب سوء تدريس الطلاب اللغات الأجنبية . فالتدريس باللغة التي يفهما الطالب و نشأ في ظل ثقافتها يسهّل عليه ذلك التواصل مع أستاذ الطب و المريض، و يربط جسور التفاهم بين مهنيي الصحة و مستعملي الخدمات العلاجية من ناحية أخرى. ويؤدي التواصل بين الأستاذ و الطالب إلى استيعاب أعمق و أوسع للمعارف المقدمة، كما يوفر التعليم باللغة العربية فرصة أفضل لاندماج المهني في المجتمع.

من جهة أخرى فإن الطالب الذي يدرس باللغة العربية تزداد سرعة قراءته 43% وتتحسن قدرته على الاستيعاب 15% عما لو قرأ باللغة الإنجليزية ، ففي الدراسة التي أجريت لمعرفة سرعة القراءة ومدى الاستيعاب على عينة من 124 طالب طب، وطبيب امتياز (يمضي فترة السنة التدريبية بعد التخرج) وطبيب مقيم (يتخصص في طب الأسرة والمجتمع) في كلية الطب بجامعة الملك فيصل وذلك خلال العام الدراسي 1992/1991. نصف أفراد العينة من الذكور والنصف الآخر من الإناث. قسمت كل فئة من الفئات الثلاث (الطلاب وأطباء الامتياز والأطباء المقيمين) إلى مجموعتين تشمل كل مجموعة حوالي 20 فردا. وأعطيت كل مجموعة مقالا طبيا لقراءته، نصف أفراد المجموعة قرأوه باللغة الإنجليزية ونصفهم الأخر قرأه مترجما إلى العربية. استغرق وقت القـــراءة 30 دقيقة،

حدد بعدها كل فرد من أفراد المجموعة السطر الذي انتهى إليه، وبذلك حسب عدد الكلمات التي قرأها. بعد 4 ساعات من القراءة عقد امتحان قصير للجميع لمعرفة مدى استيعابهم لما قرأوه. بعد أسبوع أعيدت التجربة بأن وزع عليهم مقال آخر باللغتين، الذين قرأوا المقال الأول بالإنجليزية قرأوا المقال الثاني بالعربية والعكس بالعكس ثم عقد لهم امتحان.

II. الطمأنة في الوسيلة:

إن دعوة الجمعية المغربية للتواصل الصحي إلى تدريس العلوم الصحية باللغة العربية لما لها من دور كبير في الرفع من مستوى تكوين الطلاب في الميدان الصحي لا تعني إغفال تدريس اللغات الأجنبية و إنما نؤكد على ضرورته الفاعلة في الانفتاح على العالم الخارجي و خصوصا اللغة الإنجليزية . هذه الدعوة إلى تدريس العلوم الصحية يجب أن تتسم بالتدرج و الاستعداد عبر إنتاج الوسائل و الأدوات اللازمة لذلك ، و على الخصوص إقناع أكبر عدد من المهتمين في الميدان وأيضا الاستعداد في الجانب البيداغوجي و التكويني و تعريب المقرارت و المراجع .

أما بخصوص المصطلحات التقنية فقد أكدت مجموعة من الدراسات الأكاديمية أنها لا تتعدى 3.3 بالمائة من مجموع الكلمات أما بقية الكلمات (96.7%) فهي من باب "زارني المريض وعمره كذا وجنسه كذا وأجريت له فحوصات سريرية ومعملية، أدخل بعدها المستشفي لمدة 3 أيام ثم خرج بعد أن تماثل للشفاء" وهي كلها مفردات من مفردات الكلام العادي. خلاصة نتائج هذه الدراسات الاستطلاعية ، لها دلالتها الواضحة في تميز التحصيل العلمي باللغة العربية لكل من طالب الطب والطبيب .

III. الإنجاز لتأكيد القدرة :

انطلاقا من قناعة الجمعية بدور اللغة الوطنية في نجاعة العملية التربوية بأكملها ، انتقلت الجمعية من مرحلة التصور إلى التطبيق عبر:

1. إصدار المجلة الصحية المغربية:

هدفها التكوين الطبي المستمر متلائمة مع محيطنا الثقافي والاجتماعي و أيضا لتقريب وتسهيل التواصل بين المريض والطبيب ، أتت هاته المجلة - التي تصدر بوثيرة أربعة أعداد في السنة صدر منها لحد الآن 15 عددا - لتساهم في سد إحدى الثغرات في مجال التواصل الصحي بين مهنيي الصحة والمواطن بطرحها أدوات للتكوين المستمر باللغة العربية و لتأكد على إمكانية إنتاج مادة علمية طبية باللغة العربية . كما تتطلع الجمعية إلى تجعل من هاته المجلة مجلة مفهرسة لإغناء الرصيد العربي في هذا النوع من المجلات التي لا تتعدى خمس مجالات عربية مفهرسة من بينها المجلة الصحية لشرق المتوسط .كما تسعى الجمعية المغربية لإصدار مجلات متخصصة في طب الأسنان و الصيدلة .

2. أطروحات في الطب بالعربية و ترجمة المقررات إلى العربية و الكتب المنهجية:

تعتبر الأطروحات جزء هام وأساسي في حركة البحث العلمي التي تعرفها الجامعات، إن لم تكن من أهم الأوعية التي تصل عبرها نتائج البحوث والدراسات المقدمة لنيل الدرجات العلمية، وذلك بحكم إعدادها تحت إشراف أساتذة متمرسين وتخضع لعمليات فحص ومراجعة و تقييم ومناقشة ثم تعديل، وهذه جميعا، تجعلها مؤهلة لئن تنتهي بتوصيات ومعالجات وآليات يمكن أن تسهم في إحداث التغيير أو معالجة المشكلات واستشراف التحديات، وبالتالي خدمة المجتمعات وقضاياها التنموية بأساليب علمية.

و لهذا فقد أشرف مجموعة من أساتذة كلية الطب و الصيدلة بالمغرب على مجموعة من الأطروحات تناولت المادة المقررة للطلبة قدمت باللغة العربية كلبنة أولى لتمهيد الطريق إلى تعريب الدروس التي تلقى بكليات الطب و الصيدلة ، حيث تمت مناقشة دكتوراه في الطب في مختلف التخصصات الطبية بما في ذلك بعض التخصصات الدقيقة " كموضوع :"شاكلة النمط الظاهري المناعي المشترك الشديد بالمغرب " وهو موضوع جد متخصص.

3. المؤتمرات الطبية :

أ- المؤتمر الوطني الأول "تدريس العلوم الصحية بالمغرب : بأية لغة؟

نظمت الجمعية المغربية للتواصل الصحي تحت الرئاسة الشرفية لوزير التعليم العالي والبحث العلمي وتكوين الأطر وبتنسيق مع معهد الدراسات والأبحاث للتعريب والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو- وبحضور السادة عمداء كليات الطب والصيدلة بكل من الرباط والدار البيضاء وفاس وبحضور السيد عميد كلية طب الأسنان بالدار البيضاء، مؤتمرها الأول في رحاب كلية الطب والصيدلة بالرباط تحت عنوان " تدريس العلوم الصحية بأية لغة

؟"لإثارة النقاش والبحث العميقين حول هذا الموضوع المهم والحضاري، والمثير في نفس الوقت لما فيه من أفكار واقتراحات وتطلعات تلتقي أحيانا وتتقاطع أخرى."

عرف المؤتمر حضور أساتذة وخبراء وأخصائيين في مجالات عدة مرتبطة بالموضوع، وقد حرصت الجمعية على أن توسع المشاركة فدعت أساتذة أطباء من دول عربية عدة : الجزائر، تونس، ليبيا، موريتانيا والبحرين، لهم رصيد علمي وفكري ومعرفي في هذا المجال كما ركزت الجمعية على إشراك العنصر الطلابي لأنه معنيٌّ أساسا بهذا الأمر ولما يمكن أن يمثله من قوة اقتراحية. حيث ، أمكن الخروج بمجموعة من التوصيات تم تقديمها إلى وزارة التعليم العالي و تكوين الأطر و البحث العلمي باعتبارها الوزارة الوصية ، ثم إلى الوزارة الأولى و أيضا إلى المجلس الأعلى للتربية و التكوين حيث شددت هذه التوصيات على ضرورة اعتماد اللغة العربية كلغة للتدريس بكليات الطب والصيدلة من دون إغفال تدريس اللغات خصوصا الإنجليزية و إتقانها من طرف طلبة و أساتذة كلية الطب و الصيدلة.

ب- المؤتمر الوطني الثاني و المغاربي الأول:

كما نظمت الجمعية مؤتمرها الوطني الثاني والمغاربي الأول في رحاب كلية الطب والصيدلة بالدار البيضاء أيام 24 و25 أكتوبر 2015، تحت عنوان " التربية العلاجية: تكوين ومهنية". حيث انتقلنا من المطالبة بتعريب العلوم إلى تنظيم مؤتمر طبي متخصص باللغة العربية تم إلقاء جميع المحاضرات والمداخلات باللغة العربية

وقد انعقد هذا المؤتمر تحت الرئاسة الشرفية لمعالي وزير الصحة وبشراكة مع الجمعية المغربية للفحص بالصدى AMECHO والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة – إيسيسكو ISESCO - وبحضور السادة عمداء كليات الطب والصيدلة بكل من الدار البيضاء وفاس والسيد عميد كلية طب الأسنان بالدار البيضاء.

وقد كان موضوع المؤتمر أساسا "التربية العلاجية الخاصة بالأمراض المزمنة" ، التي تعتبر أداة فعالة لتحسين جودة وأمل الحياة للمرضى وخاصة المصابين بأمراض مزمنة، حيث أن هذه التقنية الصحية الضرورية لا تزال تعيش الاغتراب في المنطقة المغاربية، فهي لا تدرس بكليات الطب والصيدلة والمعاهد الصحية مما يؤدي إلى تفاقم التكاليف المادية للرعاية الصحية وكذا ارتفاع نسبة الوفيات خاصة مع زيادة عوامل الاختطار السلوكية مثل التدخين وسوء التغذية وضعف النشاط البدني وتعاطي الكحول. بالإضافة لما يواجه العلاج الدوائي من تحدي المواظبة على الدواء. كما إن إهمال دور التكوين الطبي المستمر في التربية العلاجية يؤدي إلى اتساع الهوة بين الأطر الصحية المقدِّمة للخدمات الصحية والمريض.

ت- المؤتمر العربي للقابلية الوراثية للالتهاب و العدوى بكلية الطب الدار البيضاء:

تحت الرئاسة الشرفية لمعالي وزير التعليم العالي و البحث العلمي الأستاذ لحسن الدوادي ، شهدت كلية الطب والصيدلة بالدار البيضاء في الفترة الممتدة بين 3-5 دجنبر 2015 انطلاق أشغال المؤتمر العربي الأول و المغربي الثامن لضعف المناعة الأولي ، تحت عنوان : " نظرة شمولية عنوانها المريض ".

وعرف المؤتمر مشاركة واسعة من الخبراء و الأساتذة و الأطباء و الممرضين من مجموعة من الدول العربية الشقيقة ، كما تميز المؤتمر بحضور المرضى وأوليائهم لأشغاله. وتميز أيضا بكون اللغة التي تم إلقاء المحاضرات و المداخلات بها كانت اللغة العربية في الغالب.

ث- المؤتمر الوطني الثالث : "الإعلام الصحي: استثمار مربح"

كما نظمت الجمعية أيام 4 و 5 يونيو 2016 برحاب كلية الطب والصيدلة بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس تحت الرئاسة الشرفية لمعالي وزير الاتصال الناطق الرسمي باسم الحكومة المغربية المؤتمر الوطني الثالث :الذي حمل شعار "الإعلام الصحي: استثمار مربح"، ركز على دور الإعلام في التوعية

الجزائر ماي 2015

نواكشوط 2015

التعاون الطبي العربي 2015

الصحية للمواطن، ودور اللغة الوطنية في نجاح التكوين والعلاج والتوعية وعلى أهمية اللغة العربية في التنمية البشرية في المجال الصحي.

و قد تطرق المؤتمر الى مجموعة من النقاط التي يمكن إجمالها في:

- الإعلام الصحي: المفهوم ولغة التواصل
- أولويات الإعلام الصحي المغربي
- خصوصيات الإعلام الصحي (في الصحافة الورقية والإلكترونية وفي المجلات الصحية للعموم)

كما تخلل هذا المؤتمر تنظيم عدة ورشات تمحورت حول المواضيع التالية:

- الكتابة الطبية بالعربية : استعمال المعجم الطبي الموحد وأسس الترجمة إلى العربية
- مهارة إيصال نتائج البحوث المنشورة إلى العموم (من خلال المقال العلمي والأطروحة)
- التنسيق بين الصحفي ومهنيي الصحة (تغطية حدث صحي أو مؤتمر، إعداد بلاغ صحفي، تنظيم ندوة صحفية).

4. التنسيق والتعاون المغاربي والعربي على تعميم دعوة تدريس العلوم الصحية باللغة العربية

كما عملت الجمعية المغربية للتواصل الصحي على الرفع من مستوى تنسيقها وتعاونها سواء على المستوى المحلي والوطني خصوصا لدى الجهات الرسمية ومعاهد التعريب والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وأيضا على المستوى المغاربي والعربي من أجل جمع جهود المهتمين والفاعلين في هذا الميدان للعمل على نهج سياسة مشتركة ومتدرجة للوصول إلى الهدف المنشود وفي هذا الصدد تم عقد لقاء بين ممثلين عن الجمعية المغربية للتواصل الصحي ومهتمين وفاعلين في ميدان تعريب العلوم الطبية في كل من موريتانيا ، تونس، الجزائر .كما أن المؤتمر المغاربي الثاني في موضوع العربية في الميدان الصحي سينظم بموريتانيا أكتوبر 2016 .

خاتمة :

إن مشروع تعريب العلوم عموما و الطب خصوصا هو مشروع وطني و عربي يجب أن يُتخذ فيه قرار سياسي ويتطلب خطة استراتيجية متكاملة لضمان توفير المصادر و المراجع الطبية الحديثة باللغة العربية . وهذا يتطلب تأسيس مراكز أبحاث في علم المصطلح و مراكز للترجمة ودورا النشر ، مع وضع قاعدة بيانات بالكتب و المقررات التي تمت ترجمتها. دون أن ننسى العمق العربي و الإسلامي و الذي يتطلب القيام بإنشاء تكتلات وجمعيات تدافع عن دور اللغة العربية بكونها لغة علم و علوم في كل العصور .